**"الحرية" درس رمضاني نفيس**

**بقلم/ سكينة إبراهيم**

تشرق شمس رمضانية جميلة جديدة صحوة، ويَهم أن يخرج من بيته إلي عمله، يتذكر كوب الشاي أو القهوة الذي اعتاد ارتشافه قبل الخروج، ثم ما يلبث أن يتركه محتسبا خاشعا لله عزوجل...

.. وفي عمله ترك أيضا تلك الوجبة الخفيفة التي تشتاق إليها نفسه عادة في منتصف النهار مع كوب ساخن في رفقة زملاء العمل ساعة الراحة قبل أن يعودوا إلي عملهم من جديد، تركها هي الأخري دون اعتراض أو سخط، بل بكل رضا وحب..

وقائع بسيطة لكن معناها أكبر من القهوة أو ساعة الراحة بكثير، إنها "الحرية" ..نعم "الحرية" في أول بل وأهم دروسها، إنه المعني القائد لكل ألوان وأشكال الحرية التابعة في كل مواقف الحياة بعد ذلك، فالتحرر صناعة ذاتية تبدأ من داخل النفس وفي مخزونها الباطني، قبل أن تكون مواقف أو تجليات حركية وممارسات واقعية في مناشط الحياة المتعددة والمختلفة....

إنها تلك النسمات العليلة التي تهب علي قيظ القلب فتنعشه، وهي هذا النهر الجاري لسالك الصحراء في نهار الصيف فترويه، وهي هذا السكن الذي يؤنس صاحب الهم ويربت علي كتفه فيقلب وحشته أملا وفرحا..

إن درس الحرية لهو أثمن وأغلي مما يظن البعض؛ فما أن تسيطر علي الإنسان عادة أو حاجة إلا وتملكته وقيدته، وحين يتلعم "الحرية"..يهب منطلقا منفضا كافة الأسمال البالية؛ ومحطما أية سواجير تحاول إذلاله وإخضاعه؛ فيصير خفيفا كالطائر يمد جناحيه ويعزم علي الوصول..دون أن يخشي المسافة النائية، أو طول الطريق..

يعلمنا درس الصيام أن نتحرر من ... كل **خوف** يسيطر علي نفوسنا فيعود بنا زحفا في مسيرة الحياة مسافات ومسافات إلي الوارء، فحين نتعلم أن نتجاوز مخاوف مشاعر الجوع أو الظمأ أن تستبد بنا، نكون واعين أن الخوف مجرد هاجس حين نأخذ الخطوات الأولي لدفعه، تتوالي الخطوات التالية تباعا فنتعلم كيف لا نخشي من اكتساب المهارات وتعلم الجديد واقتحامه في أية مرحلة عمرية، ونتعلم كيف نقف أمام المستبد واثقين ثابتين بكلمة حق دون أن نخشي من سلطانه أو نفر من جحافله وقواته...

يحررنا الصوم من فكرة **التعلق** التي تجعل الشاب يخسر من شبابه وعمره الكثير وهو حبيس مرض قلبي عضال حين يأسره هوي أرضي يحجب عن عينيه كل معني للسعادة أو الراحة دونه، في حين أن مدرسة الصوم تفتح أمام عينيه مدي متسعا للحياة والبهجة والأمل فتُعلمه كيف يترك.. كما يسعي دوما لكيف يأخذ، معانٍ تغيب عن صاحبها الأسير ذي التعلق بشخص أو عمل أو مكان؛ بل إن من الحرية أن نتلقي كل ضربات الحياة وصدماتها وفقد أحبتها بقلب صامد ثابت يتقلب من محنة إلي غيرها وعينيه ترصد ما فيها من حكمة وجزاء واحتساب، فلا يستسلم للأحزان أو آلام الفقد، بل يتعالي علي كل ألم ويمضي حرا ثابتا قويا راسخا..

أما عن **القلق**..فحدث عنه ولا حرج، فالكثير من المستقبل في وجوم وترقب يمنع عنهم منحة التمتع بما بين أيديهم من نعم، يظل الرجل منحنيا ظهره في وظيفة لا تليق به قابرا فيها كل مهاراته وأفكاره وطموحه قلقا من الرزق، وطمعا في فتات معاش ما بعد التقاعد، في حين أنه ومع بعض التحرر قد ينطلق بطموحه محركا لطاقاته ومهاراته ليحقق بهم مكانة ومركزا بل ومعاشا في التقاعد أكثر مما كان يحلم وينتظر، بل إن التقاعد نفسه سوف ينساه لأنه سيبقي عمره كله يعطي ويبذل دون أن يجبره أحد علي التنحي وترك الفتات..مثل هذا الرجل كشعب يقبل بالصغار والاستعباد من مستبد ظالم، طمعا في سكون اليوم وهدوء البال ولقمة ولو بالماء أو بقليل ملح، في حين أنه إذا استشعر حريته لعلم كيف يثور ويرفض الجور فيكون حين اتحاده أقوي من مستبده فيقلعه وحاشيته ويمتلك هو ناصية وطنه وأرضه وثرواته فيأكل حينها أفضل الفاكهة ولحوم الطير بدلا من الملح والخبز الجاف إن هو وجده..

يلفت إنتباهنا هنا..تلك المتلازمة الواضحة بين كل معني إيماني أصيل يُلحظ من الشعائر التعبدية والنُسكية ذات السلوكيات الظاهرة والباطنة للجوارح وللقلب؛ ترتبط تلك المعاني بل وتتحد مع "المقاومة" بكافة مضامينها، وكأن الأخيرة ليست هي تلك الأفعال المباشرة في خط المواجهة مع الخصم أيا ما كان؛ وإنما هي في الأساس خيط ممتد من قلب الإنسان متصلا بجوارحه، إلي أن يفيض علي التحديات وصعوبات وعوائق الحياة؛ فيصل إليها حبلا سميكا صلبا لا يقوي علي قطعه خصم، ثم يتمدد كأكثر من مجرد حبل عصيّ علي الهضم، فيصير سلما صاعدا نحو البناء والمجد..

يحوي درس الحرية أكثر من هذا بكثير.... فالحرية كما هي تنزع من داخلنا معاني الاستعباد والأسر، تجلب لنا وتُسكن أنفسنا معاني الفخار والعزة..فهذا الصائم القائم الذي تعالي علي مطالب نفسه حتي الهام منها والأكثر إلحاحا، لهوي في أمس الإحتياج إلي مولاه يتعرف عليه إقبالا ودعاء، يتوسل إليه أن ينقي له قلبه من صغار الفكر والهم، وأن يهب له نفسا محلقة تعرف التقوي وتتحلي بها وتقبل عليها إقبال من فهم أنها هي نعيم الدنيا وجنتها...إنها قوة **اللواذ بالله عزوجل**، والعودة له، والإرتماء في السجود بين يديه طالبا منه العون والسند والمدد، وإلا عاد الصوم دون ذلك وكأنه جهد جهيد لم يترك أثرا فيظل صاحب الهم علي حاله كما ذهب، ويبقي المبتلي بقلبه المكروب كما هو..

والحقيقية أنه لا "حرية" بلا **صبر**..موازٍ وملاصق لها، وبدونه لما استطاعت النفس المقاوِمة الثبات، بل ولسقطت في أول عوارض الضعف واستسلمت لذاتها الأرضية وحوائجها المقيِدة..ومثله .. فطريق النصر ومواجهة الخصوم وأيام ذلك ولياليه الطوال.. يحتاج هذا المران علي النَفس الطويل في الصبر والاحتمال والجلد..

إن "حرية" تنزع كل تلك القيود، وتزرع هذا الحصن الحصين..لهي كفيلة في الختام أن تترك في النفس هذا الأثر من **السعادة**، مثلها يكون كطفل أقبل علي أول أيام العيد بوجه مضيء متهلل، متطيبا لابسا أزهي حلة، فتلك جائزة النفس حين تعيش بتلك الروح الحرة ثلاثين يوما متتابعة فتنعم بعيد تحررها وإنطلاقها في الحياة بزهو دونما عائق أو قيد..